# الحرف والصنائع في المغرب الأوسط، تواصل تاريخي وتفاعل حضاري: عهد الممالك الوطنية أنموذجا

أة: روبـى مصدق

جامعة معسكر

إنّ السؤال الجدير بالمناقشة عند طرح موضـوع الحـرف والصـنائع في المغـرب الإسلامي؛ هو هل للحرف الإسلامية بمنطقة المغرب الأوسـط مرجعيتهـا، وهـل تأثرت بالحرف والصنائع الموجودة في العهد النوميدي والموريطاني؟ وما هي أهـم النشـاطات الحرفيـة في ظـل العهـد النوميـدي والموريطـاني، وهـل كتـب لهـا الاستمرارإلى غاية الفترة الإسلامية؟.

يتعرض الباحث عندما يريد أن يلقي نظـرة شـاملة علـى تـاريخ المنطقـة مـن تاريخها القديم إلى الإسلامي إلى قطيعة تعتم الرؤية وتخفـي الحقـائق، ويعـود هـذا الانقطاع لاعتبارات عديدة؛ منها الدور السلبي للمدرسـة الاسـتعمارية، ناهيـك عن الدور الضئيل الذي تبادر به المدرسة الوطنية في ربط الفترة القديمة بالوسيطية خاصة في موضوع جديد وجدير بالدراسة على المسـتوى الأثـري والتـاريخي، ألا وهو موضوع الحرف في الجزائر على وجه العموم.

إنّ دراسة المراحل الانتقالية بين حقبة وأخرى هي أمـر بـالغ الأهميـة، ويـرى الأستاذ محمد بشير شنيتي أننا عندما نقرأ كتابات اليونـان والرومـان عـن المغـرب القديم وكذا بداية العصور الوسطى، وما كتبه العرب عن نفس الفترة بعد الفـتح نشعر وكأننا نقرأ عن عالمين مختلفين لا صـلة لهمـا بـبعض. وتعيـق هـذه الفجـوة النظرة الشاملة لتاريخ المغـرب مـن القـديم إلى الحـديث؛ وهـو مـا يـثير في نفـس القارئ إحساسا بالانقطاع الفجائي ما بين عصور ما قبل الإسلام وبعـده في بـلاد المغرب (شنيتي، م. ج 2/ 199: 491).

**1- صورة الحرفي في الأدبيات الإغريقية والعربية الإسلامية:**

كان الحرفي عند اليونان في عهد هوميروس محترما يتقاضى أجره لقاء عمله الذي يقوم به على أكمل وجه (آكلي، ن. 2009-2010: 44-45). وفي الاتجاه نفسه يصب قول الشاعر الإغريقي هزيود (Hesiode: 846- 777 ق.م) الذي أوصى في ملحمته الأعمال والأيام كل الناس على العمل؛ الذي لا يعتبره مخجلا، وإنما ما هو مخجل في نظره هو الكسل والخمول. ( Hesiode, les travaux et les jours: 102).

وبعد تطور الحياة السياسية في بلاد الإغريق وحيازة الأقلية على الأراضي أصبح مالك الأرض يحتقر العامل اليدوي، وكان الفنان الأثيني فيدياس (Phidias: 490- 430 ق.م) هو نفسه ينظر إليه باحتقار. فالمواطن عند الارستقراطية هو من يعيش من مداخيل ممتلكاته (آكلي، ن. 2009-2010: 44-45).

إنّ الفلسفة اليونانية تعتبر العمل من اختصاص العبيد والخارجين عن القانون، أمثال أفلاطون الذي يري في العمل إشباع للرغبات الدنيئة،«إن ظلام الورشة والمشقة والخضوع للآخرين ينتج عنه نفوسا مزيفة لا تدرك مفهوم الحرية و تهتم فقط بالربح » (أفلاطون،1994: 275- 285).

أما أرسطو تلميذ أفلاطون فلم يخرج عن تصور أستاذه الذي يعتقد أن الحياة عمل وليست إنتاج، وأن العبيد هم أداة لخدمة الأسياد، فقال هو الآخر « إن الحرفيين هم أقرب إلى العبيد، ولا تقبل بهم أي مدينة ضمن صفوف المواطنين ولو اعترفت بهم فلن تمنحهم كامل الحقوق المدنية، فهذه الأخيرة يجب أن تمنح للأشخاص الذين يعفون من العمل لأجل العيش» ( Aristote, Polit, II, v,6)، فالفلسفة اليونانيةمجدت العمل الفكري واحتقرت العمل اليدوي.

وتواصلت نظرة الاحتقار الإغريقية عند الرومان لدى النخبة المثقفة والطبقة الحاكمة التي اعتبرت الحرفي شرا لابد منه؛ وهذا ما نلمسه في كتابات بلين القديم الذي احتقر هو الآخر مهنة الحرفي (آكلي، ن. 2009-2010: 45)

وعلى غرار احتقار اليونان والرومان للحرفيين، كان أشراف العرب هم أيضا يزدرون العمل اليدوي ويعتبرونه « من حرف العبيد والخدم والأعاجم والمستضعفين من الناس» (يحي، ل. 1989: 340)، ولكنه بعد مجيء الإسلام، تغيرت النظرة؛ لأن الإسلام حث على العمل وأكد على حرمته، وجعل من الإنتاج تقربا إلى الله؛ وهذا مصداقا لقوله تعالى: « **وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُومِنُونَ**» (التوبة، الآية: 105)، وقول رسول الله ﷺ « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»(البيهقي: 4/ 334).

لقد تطورت الصناعة بسبب وفرة المواد الخام النباتية والمعدنية، واتساع العمران في المدن الإسلامية مع انتشار الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب، ودخول شعوب البلاد المفتوحة إلى الإسلام. غير أن هذه الصناعة بقيت تمارس على مستوى البيوت أو المحال التجارية فقط، وكان يتوجب على الحرفي أن يتحلى بالمهارة العالية والصبر على ظروف العمل، الأمر الذي طبع إنتاجه رغم قلته بطابع الإتقان والجمال. وكان أهل الحرف يصنفون ضمن العامة، ولذلك نالوا عطف وتقدير عدد من الكتاب والمفكرين أمثال ابن خلدون (العبادي، أ. 2004: 316-317)

وتناول المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون (ت. 808هـ/ 1406م) الصنائع والحرف في عدة فصول من مقدمته؛ فهو يعتبر الصناعة وما ارتبط بها من مهن مختلفة رمزا للحضارة ولا تنتشر إلا بين أهل الحضر، ولا تستوي إلا

بكمال العمران الحضري. والنشاط الصناعي في نظر ابن خلدون هو عمل مركب وعلمي يتطلب الأفكار والأنظار. (ابن خلدون، ع. 1998: 371-372)

**2- الحرف والصنائع في عهد الممالك الوطنية:**

إنّ المنطقة التي كانت تمتد على رقعتها الممالك البربرية -المغرب الأوسط- في التاريخ القديم لم تكن منغلقة على نفسها حضاريا، ولكنها تأثرت بالحضارات المجاورة لها، مثل الحضارات المصرية واليونانية والفينيقية والقرطاجية، وهذا ما جعلها تحقق تقدما كبيرا في جميع المجالات (آكلي، ن. 2009-2010: 24). وذلك ما تؤكده النصوص الأدبية والأثرية التي تدل على تعدد وتنوع الحرف (حارش، م. 1995 :123)

**أ- المنسوجات:**

استخدم سكان المنطقة الجلباب والمعطف، ولبسوا تحت المعطف سترة، وكانت الجلابيب أيضا تُلبس تحت المعطف. وفيما كانت المعاطف تُنسج من الصوف، كانت الجلابيب تصنع من القماش، ولا تعتبر هذه الظاهرة قاعدة دائمة، فالجلابيب كانت هي الأخرى تصنع من الصوف الذي كان يغلب استخدامه في الملابس المغربية (حارش، م. 1995:124) . بالنسبة لهذا النسيج الذي كان يحاك على مستوى العائلات، فخدمته الأولية من تنظيف وندافة وفتل كانت الناسجة هي من تقوم بهذه الأعمال، والنول هو الذي ينسج عليه الصوف. (Gsell, S, 1927: t 6, 63 -64.)، والنقائش المعثور عليها في معبد الحفرة بقسنطينة أثبتت وجود حرفة النسيج(Berthier, A ; Charlier, F. 1955: n° 50).

إضافة إلى هذه الملابس، هناك لباس أخذ شهرة ضمن الملابس المحلية؛ وهو البرنوس، الذي كان ينسج من الصوف الأبيض عادة ونادرا ما

كانت تستخدم فيه الألوان. وفيما يتعلق بقدم صناعة البرنوس، فإن غزال يتردد في إقرار قدمها (Gsell, S, 1927: t 6, 25 -26.)، ووضعت حدا لهذا التشكيك الرسوم الصخرية العائدة إلى الفترة النوميدية في منطقة سيقوس بأم البواقي الحالية، التي درسها بيرثي ولوجايار ( Berthier, A ; Logeart, F. 1937:391-393).

وهذا اللباس الذي بقي متأصلا في المنطقة عُرف به السكان في الفترة الإسلامية، حيث يذكر البكري الذي عاش في القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي ( 400- 487هـ / 1010- 1094م) هذا اللباس بقوله أن: « ... ومنها إلى سوق فنكور سوق عامرة حافلة يعمل بها البرانس » (البكري، أ. 1857 :155). ومن غير المستبعد أن يكون لباس البرنوس شمل كل المنطقة المغاربية وقد تواصلت صناعته في الفترة الإسلامية، وهذا ما يتأكد مع ابن سعيد المغربي الذي عاش في القرن السابع هجري الثالث عشر ميلادي حين ورد لديه ما يلي: « وتميزت برانس مديونة بأنها لا تنفذ منها مياه الأمطار » (ابن سعيد، أ. 1982: 141)

ومن أهم الألبسة التي نالت شهرة في حوض البحر الأبيض المتوسط تلك التي كانت تُصبغ بالصباغة الأرجوانية، وكانت مدينة القل تمتاز باستخراج المريق من البحر (محار الأرجوان: Murrex) وصناعة الصباغة الأرجوانية (حارش، م. 1995: 123). وأفضل مثال على جودة وأناقة هذه الصناعة هو الرداء الأرجواني الذي كان يرتديه ملك موريطانيا بطليموس (ت. 40م)؛ والذي صُنع في معامله، وكان السبب المباشر وراء قتله من طرف الإمبراطور الروماني كاليغولا (37م-41م)، لأنه سحر ببريقه الأنظار في الملهى الكبير بمدينة ليون الفرنسية (Lugdunum) (سعود، م. 2008:85)

**ب- الصناعة الحربية:**

كانت بلاد المغرب قلعة تواصل منها الفتح الإسلامي إلى الأندلس وصقلية، ومن هنا نتساءل عن مصدر الأسلحة التي استعملها المسلمون آنذاك إن كانت محلية أم وافدة! خاصة وأن المنطقة حروبها لم تنته حتى مع قدوم الفاتحين.

لقد كان السلاح يستخدم لغرضين هما الصيد والحرب (Gsell, S, 1927: t 6, 39.)، ومن أهم الأسلحة التي عرفها البربر حسب قول الجغرافي الإغريقي سترابون الأمازي (63 ق.م-24م :Strabon) الذي وصفهم بأنهم: « لا يحاربون إلا بالحراب والرماح ويقودون جيادهم بحبل بسيط يقوم مقام اللجام، ويركبونها بدون سرج، ويحمل بعضهم فقط الخناجر» (Strabon, XVII,7).

أما بالنسبة للسيف، فالعديد من المصادر الأدبية نفت وجود السيف ضمن الأسلحة المستعملة (Dio- dore de Sicile, III,49,4.)، ولكن وردت إشارة عند المؤرخ الروماني تيت ليف (59 ق.م -19م :Tite-Live) من أن السيف كان من ضمن أسلحة الأهالي، ولكنه لم يكن واسع الانتشار، ويمكن أنه استخدم فقط من قبل القادة (Tite-Live, III,49,4). وهذا ما أكده المؤرخ الروماني سالوست (86 ق.م/ 35-34 ق.م SALLUSTE) بقوله: « في تلك الأثناء أشهر يوغرطة سيفه وهو يقطر بدماء مشاتنا الذين قتلهم في المعركة» (سالستيوس. غ.ك.165CI:2006). وحسب شهادة بعض المؤرخين، لم تستعمل السيوف بشكل واسع حتى القرن السادس ميلادي (Procope, II, 41, 19.)

كان سلاح المقاتلين المور وحتى النوميد بسيطا تماشيا مع تكتيكهم الحربي القائم على حرب العصابات والكر والفر، وقد لعبت هذه الشعوب

أدوارا حاسمة في جل الحروب التي قامت بالمنطقة (آكرير. ع. 2007: 112)، وسيلعب فيما بعد أحفادهم دورا بارزا في نشر الإسلام في إطار الفتوحات الإسلامية للقرن الأول الهجري. ومن بين الأسلحة التي استخدمها المسلمون الرماح والسيوف وغيرها (العبادي، أ. 2004: 348).

وكان الحصان يعتبر سلاحا هاما من بين أسلحة الجيش، وقد نالت الخيول الأمازيغية شهرة واسعة إلى جانب شهرة فرسانها؛ وهي قصيرة نوعا ما ومطاوعة وصبور(Strabon, XVII,3,7)، تأكل العشب ولا تشرب الماء إلا قليلا (Appien, Libyques, 11, 71.). ومما يدعم هذا الطرح ما ورد عند ابن أبي دينار في كتاب -المؤنس في أخبار افريقية وتونس- عن انتصار عقبة بن نافع على جيش خصومه من الروم والبربر قرب الأوراس بالجزائر في قوله : « وهزم جيشا من الروم والبربر وغنَم منهم خيلا لم يروا أحسن منها » (ابن أبي دينار، ق. 1993: 42).

**ج- صناعة الخزف:**

يعتبر الخزف أو الفخار سجلا ثقافيا وزمنيا يُعَرِف بالموقع الأثري وبالوظيفة التي صُنِع من أجلها وهناك اختلاف في تقسيم الخزف الأمازيغي من قبل الأثريين أمثال كامبس وغزال، فقسمه الأول إلى فخار نذري يستعمل في الجانب الديني، وفخار منزلي للاستعمال اليومي.

(Camps, G1961:145-65)

أما غزال، فصنفه إلى فخار غير مزخرف كالقدور والصحون والمصابيح، وفخار مصبوغ ومزخرف باللونين الأسود والأحمر؛ وهو ما يميز الزخارف الفخارية إلى اليوم في منطقة القبائل. أما الأواني فيمكن تصنيفها إلى أواني الطهي وأواني الشرب والأكل، وجرار التخزين. وميز غزال أيضا بين نوعين من الفخار من حيث تقنية الصنع، الفخار البدوي النسوي الذي

لا تستخدم فيه المخرطة ولا الفرن، فغالبا ما تشكل الأواني باليد وتشوي في نار عارية؛ أو تجفف بالشمس فقط، والفخار الذي يصنع في المصانع على يد الرجال (Gsell, T6: 64-65). وهذه المصنوعات الفخارية بالأشكال الهندسية التي تحملها ظلت متواصلة ببلاد المغرب في العصور الإسلامية (حارش، م. 1995: 123).

**د- الجص:**

إنّ الصناعة الجصية تقنية معروفة في بلاد المغرب، واستخدمت في العمارة النوميدية والموريطانية، ولكن أصل هذه الصناعة مجهول، إذ أن الجص لا يُصنع في ورشات ولكن ينتقل من منطقة إلى أخرى عن طريق القالب والحرفي، وهو ما ميز هذه الحرفة في القديم. وكان الغرض من استخدام هذه التقنية لبعد جمالي ولتغطية عيوب الجدران بطبقات من الملاط الواحدة تلوى الأخرى، وتنتهي الطبقة الأخيرة بزخارف بارزة كأوراق الأشجار أو أوراق العنب بطريقة متناظرة (آكلي، ن. 2009-2010: 198- 200). ولقد عرِف الفن الإسلامي الزخرفة والنقش، وخير مثال على ذلك الزخرفة المعمارية الفاطمية التي لا يستبعد تأثرها بالحضارات القديمة التي كان مصدر إلهامها واحد وهو الثقافة الهيلينية (عبد الحميد، س. 2004: 448- 527).

**و-الصناعة الغذائية:**

- **صناعة الزيت:**

إنّ وفرة غراسة الزياتين بالمنطقة المغاربية أدى إلى انتشار معاصره في المناطق الريفية الممتدة في السفوح الجبلية النوميدية والموريطانية. وإنه لا يكاد توجد منطقة ليس فيها معاصر للزيت؛ وهو ما يدل على الاستعمال

الواسع الذي عرفته هذه المادة الأساسية في جميع المجالات، مثل التغذية والإضاءة والصحة وصناعة الصابون.

لقد دعمت الأبحاث الأثرية ما جاء في المصادر الأدبية عن ثراء إفريقيا بالزيت، وكانت نوعية الزيت وجودته تتبع نوع الزيتون ودرجة نضجه، وكذا طريقة وأدوات عصره، حيث كان يخصص الزيت الجيد للاستهلاك الغذائي، أما الأقل جودة فيُوجه للأغراض الصناعية والصحية، وللإضاءة على وجه الخصوص (العقون.ع. 2008: 124). وتواصلت صناعة الزيت في الفترة الإسلامية حسب ما جاء في زهرة البستان ونزهة الأذهان للطغنري (كان حيا 480 هـ/ 1087م) الذي قال أن صناعة الزيتون كانت تستخلص بواسطة العصر أو الطحن أو الغلي ( بوتشيش، إ . 2002: 94)

- **صيد السمك وصناعته:**
-

عُرِفت المنطقة المغاربية بغناها بالثروة السمكية منذ القديم حتى يومنا هذا، وجاء ذكر هذه الثروة في المصادر الأدبية والأثرية وأيضا في الأدبيات العربية الإسلامية للفترة الوسيطية؛ وهذا بذكر أنواع السمك الموجودة بالساحل. لقد كان تمليح الأسماك يتم في معامل النوميديين وظهرت بعض أنواع الأسماك على بعض عملات مويطانيا؛ مما يعكس أهمية هذه الحرفة (Gsell, T5: 212). وتواصلت عملية صيد المرجان الذي كان يستخدم في صناعة الحلي منذ عهد النوميديين إلى غاية الفترة الإسلامية كما جاء عند البكري الذي قال: « وشرقي مدينة بونة مدينة مرسى الخزر فيه المرجان » (البكري، أ. 1857 : 55)

لقد تشبعت المنطقة المغاربية بنفس التأثيرات الحضارية التي نهلت منها نظيرتها منطقة المشرق، فتأثير الثقافات الهيلينية والرومانية والبيزنطية

واضح في التاريخ القديم، ولكن درجة الوضوح في امتزاج هـذه الثقافـات بالحضارة الإسلامية تكاد تختلف بين دفتي الحضارة المشرقية والمغربية. وقـد يبدو للباحث أن المغرب الإسلامي هو امتداد للمشرق، غير أن بلاد المغرب لهـا إرثها الحضاري قبل الإسلام، والحضارة الإسلامية لم تنشأ من الفراغ، وإنما قامت على أنقاض حضارات هي مصادرها التي أثرت فيها، والحضارة هي أخذ وعطاء، تأثير وتأثر، تداخل وتفاعل، تبـادل وتـرابط بـين السـابق واللاحـق، إيمانـا بسـنة التطور (العبادي، أ. 2004: 358).

إن هذا الإرث موجود وسيماط عنه اللثام في يوم من الأيام؛ وهذا من خـلال الدراسات الجادة والتنقيبات الأثرية التي تقدم للباحـث مـادة تـنير طريقـه لكتابـة تاريخ المنطقة الحرفي عبر عصوره بكل وضوح. خاصـة وأن هـذه المنطقـة أعطـت التقنية لنتاج الحرفة مع حضاراتها التي تعـود لمـا قبـل التـاريخ وفجـره. والتـاريخ بدون وثائق لا معنى له، فالتاريخ هو الوثيقة الأصيلة الصادقة، فلا بد من التركيز على المرحلة الانتقالية بين التاريخين القديم والوسيط وإيفائها حقها.

**قائمة المصادر والمراجع**

**أولا بالعربية:**

- القرآن الكريم.
- ابن أبي دينار. ( 1993) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط3. لبنان: دار المسيرة.
- ابن خلدون، ع. (1998). مقدمة ابن خلدون، ط2. بيروت: دار الكتاب العربي.
- أفلاطون. (1994) الجمهورية . ترجمة شوقي داود تمراز، بيروت: المكتبة الأهلية للنشر والتوزيع.
- أكرير، عبد العزيز. (2007). تاريخ المغرب قبل الإسلام: الممالك المورية الأمازيغية قبل الاحتلال الروماني ( قراءة جديدة)، ط1. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- آكلي، نورية.(2009-2010). الحرف والحرفيون في نوميديا قبل العهد الروماني. رسالة دكتوراه غير منشورة لنيل شهادة دكتوراه في (الآثار القديمة)، جامعة بوزريعة، الجزائر.
- البكري، أبي عبيد. (1857). المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، ط1. الجزائر: مطبعة الحكومة.
- بوتشيش، إبراهيم. (2002). إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، ط 1. بيروت: دار الطليعة.
- البيهقي، . شعب الإيمان: 4/ 334.
- حارش، محمد. (1995). التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى غاية الفتح الإسلامي، ط1. الجزائر: المؤسسة الجزائرية للطباعة.
- سالوستيوس، غايوس كريسبوس. (2006). حرب يوغرطة، الجزائر: دار الهدى.
- سعود، محمد. (2008). صفحات من تاريخ المغرب القديم، ط1.الرباط: منشورات فكر.
- الطغنري. (2005). زهرة البستان ونزهة الأذهان: حققه وعلق عليه محمد مولود المشهداني ،القاهرة:الدار الدولية للإستثمارات الثقافية.
- العبادي، أحمد. (2004). «الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية». سعيد عبد الفتاح وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، ط1. د.م : دار المعرفة الجامعية.ص ص 309-358.
- عبد الحميد، سعد. (2004). «الحياة االفنية، ثانيا تاريخ العمارة والفنون التشكيلية في دولة الإسلام». سعيد عبد الفتاح وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، ط1. د.م : دار المعرفة الجامعية.ص ص 443-555.

- العربي، عقون. (2008). الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، ط1. عين مليلة: دار الهدى.
- المغربي، أبي الحسن. (1982). كتاب الجغرافيا، ط2. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- يحي، لطفي. (1979). العرب في العصور القديمة: مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام،ط 2. بيروت: دار النهضة العربية.

**-ثانيا بالفرنسية:**

- Berthier ; R. Charlier, le sanctuaire punique d'el – hofra à Constantine, Paris, 1955.
- Berthier, F. Logeart, "Gravures rupestres de Sigus". (1937). IIIè e congrès. de la Fédération. des Societe des Savantes de l'Afrique du Nord.
- Appien, Histoire romaine . (2002). Les Belles Lettres,Paris.
- Aristote, Politiques. (1874 ). de ladrange,Paris.
- Camps, G. Monuments et rites funéraire protohistoriques aux origines de la Berberie, Paris, 1961.
- Diodore, de Sicile. (1737). Histoire Universelle, Paris.
- Gsell, Stéphan. (1913): Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, Hachette, Paris.
- Hesiode, Les travaux et les jours:remacle.org/bloodwolf/poetes/falc/hesiode/travaux.htm
- Procope. (1990). La Gerre Vandale, Ed, J, Haury, Paris.
- Strabon, A. (1887). Géographie. Hachette, Paris
- Tite-Live. (1994). Histoire romaine, Flammarion , Paris.